

القصيدة اللافتة في الشعر العربي المعاصر

د. سعيدي محمد

جامعة مستغانم

تتنوع القصيدة العربية المعاصرة في بنائها وفي شكلها عما ألفناه في شعرنا العربي القديم، وإن كانت هذه القصيدة قد تغيرت بعض التغير في الشكل وفي المضمون في فترات متباعدة إبان مسيرتها الإبداعية الطويلة، كما كان شأنها في مطلع العصر العباسي وأيام الحضارة الأندلسية حيث نشأ فنّ الموشحات، إلا أنّ التجديد والتغيير الذي أصاب القصيدة العربية المعاصرة في أيامنا لم نعهده في شعرنا، فهو شكل ذو بال يلفت بصر القارئ بتنوع البنية واختلاف الأسطر الشعرية حتّى أضحت القصيدة المعاصرة لوحة شكلية تقاسم فنّ الرسم والتصوير خاصيته ومهمته، وقد اخترت في هذا المقال تبيان بعض الشكل وبعض المضمون، أو لأقل بنية القصيدة اللافتة التي يحفل بها شعرنا العربي المعاصر .

المقصود «بالقصيدة اللافتة» هي تلك القصيدة الموجزة والمركزة جدًا التي تصدر على شكل ومضة أو إشراقة، فتؤثر تأثير الشّارة الضوئية الكهربائية في الجسد وتفعّل فعل السّحر المؤثر في النّفس. تحمل أفكارا قليلة ولكنها عميقة ومكثّفة، وهي قصيدة «لافتة» تلفت انتباه العقل والنّظر؛ البصر والبصيرة؛ تشدّ الفكر وتستفزّ المشاعر والعواطف. تلمحها مسطورة أمامك فلا تقاوم نفسك حتّى تقبل عليها قراءة وتذوقا، شأنها شأن اللافتة المعلقة التي تصدم الغادي والرّائح .

وفي تراثنا الشعري والنّقدّي التفاتت جديرة بالنّسجّل في هذا المجال الذي هو شكل القصيدة وطولها وقصرها، فقد فرق نقّادنا قديما بين البيت والنّتفة

والقصيدة، ولم يكن يُطلق مصطلح القصيدة إلا على سبعة أبيات وما جاوزها. إلا أنّ النّقد الغربيّ، في العصر الحديث، كان سباقاً إلى محاولة التّأصيل لهذا الشّكل من الشّعر، فالنّاقّد هربرت ريد Herbert Read « واحد من القلائل الذين تناولوا بحث مشكلة القصيدة القصيرة، فهو يحدّد ماهية القصيدة القصيرة في كتابه: الشّكل في الشّعر الحديث form in modern poetry على الشّكل التّالي: الشّكل والمحتوى مندمجان في عمليّة الخلق الأدبيّ. عندما يسيطر الشّكل على المحتوى (الفكرة)، أي عندما يمكن حصر المحتوى بدقّة فكريّة واحدة واضحة البداية والنّهاية، كأن ترى في وحدة بيّنة، عندها يمكن القول إنّنا أمام القصيدة القصيرة. في حين عندما يكون المحتوى (الفكرة أو التّصوّر الفكري) معقّداً جدّاً لدرجة أن يلجأ العقل إلى تقسيمه على شكل سلسلة من الوحدات الجزئيّة، وذلك ليخضعه لترتيب ما من أجل استيعابه في إطار كليّ، عندها يمكن القول إنّنا إزاء ما يسمّى بالقصيدة الطّويلة »⁽¹⁾. فالفكرة أو الأفكار في الشّعر تؤدّي أدواراً ذات بالٍ وأهميّة في تشكّل القصيدة والمقطوعة. والطّول والقصر لا يتشكّلان اعتباطاً إذا لم تتدخّل عوامل نفسيّة ومعنويّة تنصّرها بواعث فكريّة قد تكون سطحيّة وبسيطة، كما قد تكون عميقة ومركّبة، والبساطة أو العمق يساهمان بقسط كبير في طول القصيدة فتضحي متشعّبة لا تحتويها الصّفحة والصّفحتان، وقد تقصّر فلا تتجاوز أسطراً قليلة العدد .

وقد تختلف التّسميّات والمصطلحات بحسب اجتهادات النّقاد وانتماءاتهم الشّعريّة والتّقافيّة. فقد يُطلق عليها اسم: القصيدة المركّزة، وقصيدة التّوقيعة، وقصيدة الفقرة، وقصيدة الدّقّة، وقصيدة اللّحمة...، وغيرها من المصطلحات الدّالة⁽²⁾، أو كما سمّاها نزار بريك هنيدي: «المنمنمة»، لأنّ هذه التّسمية؛ حسب رأيه؛ « تُبعدنا عن الإشكال المتعلّق بالقياس الكميّ لطول القصيدة، كما

أنّها تتمّ عن غناها بالعناصر الفنيّة، وتشيرُ إلى الشّغل الفنّي المركز الذي تتطلّبه كتابتها «⁽³⁾».

ومهما اختلفت التّسميات والمصطلحات التي يطلقها النّقاد على القصيدة القصيرة، فتنبّقى لها خصائصها ومميّزاتها التي تميّزها عن القصيدة الطويلة، وهيّ الخصائص التي يكاد يُجمع عليها النّقاد والشّعراء. فبالإضافة إلى القصر، نجد هذه القصائد تتسمّ بالتّكثيف والتّركيز، وانعدام الاستطراد والابتعاد عن التّزويق والتّتميق، والاقتصاد في حروف العطف والتّفسير، والاكتفاء بالتّلميح دون التّصريح، وبالرمز دون الكشف، دون التّفريط في باقي الأدوات الشعريّة من وزن وإيقاع وصورة وخيال ولغة شعريّة.

ومن هنا تكتسب هذه الأنواع من القصائد صعوبة، فلا تُطاوع كلّ شاعرٍ لأنّ ينظّم قصيدة قصيرة، في الوقت الذي لا يجد فيه أيّ عناء لإنشاء قصيدة أو قصائد طويلة، إذ إنّ الاستطراد والتّطويل يسعف كثيرا الشّاعر ليقول كلّ شيء بلا كلّ. بينما تراه يكابد كثيرا في تبليغ رسالته بألفاظ معدودة، فهوّ يصارع من أجل أن تكون قصيدته مكتملة غير ناقصة في حيّز مكانيّ ضيق جدّا دون التّفريط في شعريّة الشّعر .

و«اللافتات» في الشّعر العربيّ المعاصر هيّ صنعة ونظّم الشّاعر المجدّد أحمد مطر. حيث استجاب لروح العصر المتسمّ بالخفة والسّرعة والقلق، فلم يعد القارئ المعاصر ذلك القارئ الذي يتجشّم عناء الجلوس أمام المخطوطات والكتب والموارد المعرفيّة المختلفة السّاعات الطّوال، وهوّ يقلّب الصّفحات تلو الصّفحات، ويفتّش عن معارف، وقد لا يظفر بها، وإنّ ظفر فبشقّ الأنفس .

إنَّ القارئ المعاصر يبحث عن السَّهل المقتضب المباشر، فقد أُعيتِه هموم العصر وأثقلت كاهله تعقيدات الحياة؛ والقصيدة المعاصرة هي إحدى مبتغيات القارئ المعاصر التي تستجيب لمسلك الاستسهال الذي ينتهجه، ولكنها تدعوه إلى التأمُّل وإعمال الفكر. يقول أحمد مطر في إحدى لافتاته :

« كُنْتُ أَسِيرُ مُفْرَدًا
أَحْمِلُ أَفْكَارِي مَعِي
وَمَنْطِقِي وَمَسْمَعِي
فَازْدَحَمْتُ
مِنْ حَوْلِي الْوُجُوهَ
قَالَ لَهُمْ زَعِيمُهُمْ: خُدُوهَ
سَأَلْنُهُمْ: مَا تُهْمَتِي ؟
فَقِيلَ لِي :
تَجْمَعُ مَشْبُوهٌ ! » (4)

فلم يكن أحمد مطر بحاجة إلى تطويل واستطراد حتَّى يقول ما أراد قوله، فقد اكتفى بالإيجاز والقصر، فكانت قصيدته لافتةً، اكتملت فيها أفكاره، وكانت وعاءً وافياً لرسالته الشعريَّة وما تبطنه من نقد سياسيٍّ للنُّظم الظَّالمة التي تُطارد الأبرياء لأنَّهم امتلكوا الفكر المستتير والوعي المتيقِّظ والمنطق الصَّحيح. فقد وردت قصيدة أحمد مطر بمثابة وخز بابر الألفاظ، حيث الإيجاز المركَّز، ووحدَةُ المضمون، والوحدة العضويَّة، والقالبُ الموسيقيُّ الأخاذُ، بالإضافة ما يُضفي عليها الشَّاعر من مُسحةٍ ساخرةٍ .

وللسّخريّة جانبها الفنّي السّاحر والجميل في شعر أحمد مطر، فليست هيّ تهكّما ساذجا ولا هيّ بالمضحكات الجوفاء، بل للسّخريّة أهداف أسمى وغايات أرقى، هيّ وسيلة أسلوبية إلى غاية فكرية ورسالية ترمي إلى تبيان الدّاء حتّى يتسنّى وصف الدّواء، وما أكثر مواطن الفساد في مجتمعاتنا هاته الأيّام التي لا يصحّ أن يغفلها شاعر كأحمد مطر وهو من هوّ وعيا والتزاما، أو أن يغفلها ويضرب عنها صفحا سعيا وراء أيّ ذريعة كانت، وهوّ الشّاعر اللّصيق بهوم أمّته، يؤلمه أشدّ الألم ما هيّ فيه من تشردم وتناحر وتخلّف وظلم واستبداد، يقول في إحدى لافتاته :

« . ما تُهمّتي ؟

. تُهمّتك العروبة .

. قلتُ لكم ما تُهمّتي ؟

. قلنا لك العروبة .

. يا ناس قولوا غيرها .

أسألكم عن تهمتي ؟..

ليس عن العقوبة ! « (5)

حيث يتّخذ أحمد مطر من المفارقة السّاخرة وسيلة تعبيرية أخاذة، ينتقد بها فسادا استشرى في دماء الأمة العربيّة وفي عروقها، ويلفت نظر وانتباه الإنسان العربيّ إلى بعض مكامن الدّاء في مجتمعه بوسيلة فنية بعيدا عن المباشرة والتّقريرية، لينشئ قصيدته صورة مكتملة الشّكل واللّون .

تلك هيّ اللّافنة التي ترقى إلى شعريّة الإيجاز والتّكثيف في المعاني وإلى العمق في المضامين والأفكار بعيدا عن التّطويل والاستطراء والسّطحيّة والإسفاف .

كما شاعت القصيدة القصيرة عند نزار قباني كذلك، وباتت دواوينه حافلة بها، تضم مضامين عديدة، منها تلك اللافتات التي يخصص بها الأوضاع السياسية، وما تفرع عنها من حرية وقمع واستبداد، يقول نزار قباني :

« لست أدري ماذا يقول الشاعر ؟

وهو يمشي في غابة من خناجر ..

أطلقوا نارهم على المتنبّي .

وأراقوا دماء مجنون عامر .

لو كتبنا يوماً رسالة حب ..

سنفوناً على بياض الدفاتر

ما يؤسع السياف قطع لساني

فالمدي أزرق .. وعندي أظافر ... »⁽⁶⁾

وله أيضاً، وهو يعرض بالاستبداد والمستبدّين، وما يكيلونه للشعراء الرافضين :

«كان الشاعر يأكل من أوراق الورد ،

وكان ينام بأحضان الصفصاف

ثم أتى عصر عربيّ

صار الشاعر فيه ،

ينام بأحضان السياف ... »⁽⁷⁾

ويقول أيضاً، وهو ينتقد أوضاع الكتاب والأدباء والمتقّفين وما يعانونه بحثاً عن الحرية في الوطن العربيّ:

«الكاتب في وطني

يتكلّم كلّ لغات العالم ،

إلا العربيّة ..

فَلَدَيْنَا لُغَةً مُرْعَبَةً

قَدْ سَدُّوا فِيهَا كُلَّ ثُقُوبِ الْحُرِّيَّةِ !! «(8)

وهذه النماذج كلها قصائد قصيرة، ولكنها على قصرها فقد استوفت أغراضها الفكرية والفنية والإيقاعية والجمالية، فقد تضمنت رسائل شعرية انتقادية للحكم الاستبدادي في الوطن العربي، وفقدان الشاعر لحريته لأنه رفض الذل والاستكانة، بالإضافة إلى رسائل أخرى تستنبط من ثنايا الأبيات. كما أن هذه الومضات الشعرية لم يفرط أصحابها في الجانب الموسيقي، وفي الوزن والقافية، حتى تبرز قطعة شعرية تحوز كل العناصر الفنية .

ولا يظننَّ ظانَّ أنَّ الشعراء الثوريين المعاصرين قد توقّفوا عند نظم القصيدة الطويلة، بل إنَّ المتصفح لدواوينهم والقارئ لشعرهم يالفهم قد أبدعوا القصيدة الطويلة بامتياز، فقد اكتملت عدّتهم الإبداعية من بلاغة وأسلوب وعروض ولغة وفكر وما شئنا من آليات شعرية تُطيلُ نفسَهُمْ ولا تجعلهم ضيقِي الرؤية ومنحسري الرؤيا، أو حبيسي الاجترار، أو عالة على غيرهم من الشعراء .

فقد اكتنزت دواوينهم بالقصائد الطوال كما هو الشأن عند مصطفى الغماري الذي لا تكاد تخلو دواوينه كلها من مجموع قصائد تضم عشرات الأبيات، ولا يشعر القارئ باهتزاز في بنيتها أو خلل في تركيبها أو ضيق في نفس الشاعر، والملاحظة نفسها تصدق على شعراء آخرين معاصرين ومنهم أحمد مطر ومظفر النواب ونزار قباني وأمل دنقل، ولو أحصينا كل قصائدهم الطوال لأنشأنا ديوانا ضخما عديدة هي قصائده.

وللوزن والإيقاع نصيبهما من الجمالية الشعرية في القصيدة اللافتة القصيرة، فلم يتمرد شعراؤها على النظام العروضي المعهود ولم يتنكروا للتفعيلة ولا للوزن ولا للقافية، إلا أنهم نوعوا توظيف القوافي وتصرفوا في الأوزان وأبدعوا في الإيقاعات المختلفة التي تجلّ عن العدّ، إلا أنّ هذه الوريقات المعدودة لا تسعفنا لتقديم الشواهد الشعرية للتدليل على كلّ تنويع في وزن أو تبيان كلّ إيقاع في اللافتة .

هذا ما حاولت تبيانه من عناصر إيقاعية في هذا المقال، والحقيقة أنّها ليست هي كلّ العناصر التي تزخر بها القصيدة القصيرة المعاصرة، بل اكتفيت ببعضها على سبيل الإيجاز، وإلا لكان هذا المقال أطول وأكثر تشعباً ممّا سطرته، ذلك أنّ عناصر الإيقاع الشعري التي تُبطنها القصيدة اللافتة المعاصرة أبعد من الوزن والقافية والتكرار . فالتدوير هو أحد أبرز ملمح إيقاعي تتميز به القصيدة عند الشعراء المعاصرين، سواءً أكانت قصيدة عمودية أم قصيدة تفعيلة وهو مؤثر ذو أهمية كبرى في تنويع الإيقاع وتشكيله .

كما كان لإيقاع القصيدة التشكيلية نصيب عند الشعراء المعاصرين ولا سيّما عند أمل دنقل، فليس اعتباطاً أو جزافاً أن يرسم الشاعر قصيدته أو مقطعاً منها على شكلٍ من الأشكال الهندسية، فتأخذ شكل المثلث أو المربع أو الدائرة، كلّ ذلك لمعانٍ يرمي إليها الشاعر .

ثمّ يبرز إيقاع الفراغ أو إيقاع البياض ذو الدلالات الشعرية الكثيرة، إذ إنّ « البياض يحتلّ جزءاً من بنية النصّ، حيث يتعاوض مع السواد لإنماء إيقاعية النصّ وإثراء دلالاته، بما يحمله من إحياء، وكأنّ الفراغ في النصّ كالفراغ بين الأغصان، وإيقاعه كحفيف الهواء في الأشجار، وما كان لإيقاعه أن يكون لو

مُلئَ هذا الفراغ، وأُغْلِقَتْ منافذُهُ»⁽⁹⁾، وغنيَّ عن البيان أن تكون مساحات البياض التي يتعمّد الشاعر تركها بكَرًا فارغةً لأمرٍ مقصود غنيّة بالمعاني والرموز والتأويلات، وذلك هو نصيب آخر للقارئ يمارس فيه قراءته وفهمه للنصّ الشعريّ، « فالشاعر يمارس نشاطه في المساحات السوداء، تاركا البياض كتعبير صامت مغلق، إلاّ أنّه صامت يستنطقه القارئ، ومغلقٌ مفتوح على تداعياته وخياله »⁽¹⁰⁾.

إنّ هذه التّوابعات الإيقاعيّة في الوزن والقافية وفي شكل القصيدة وما يتخلّلها من تكرار وتدوير وبياض لَهِيّ سماتٌ بارزة في القصيدة المعاصرة، تزيدّها ثراءً وتفرداً، فتتجدّد هذه القصائد في عين القارئ، وتلهمه قراءاتٍ متعدّدة ما كان ليَصِلَ إليها لولا هذا التنوّع في الأشكال والإيقاعات.

أمّا من حيث المضامين فإنّ شعراء القصيدة اللاحقة المعاصرين رساليّون وشعرهم رساليّ بأسمى ما تبطنه الرّسالة من سموّ وسؤدد ومسؤوليّة والتزام، إبداعاً وفكراً وأدباً وجمالاً، حيث تعلو المضامين الدّينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة التي تنشد هموم الجماعة والأمة عن تلك المضامين الذاتيّة التي تتغنّى بنرجسيّة الشّاعر، ودواوينهم طافحة وملئى بالموضوعات التي تعكس شخصياتهم الغيريّة، فهم شعراء يعيشون لغيرهم، وينكرون ذواتهم، همهم الأكبر أن تسمو أمّتهم أمام سائر الأمم، وترتقي شعوبهم نحو السّؤدد علماً وفكراً وحرية .

-
- ¹ - د.عليّ الشّرع: بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس. سوريا. دمشق. منشورات اتحاد الكتاب العرب. ط: 1. السنة: 1987. ص: 51.
- ² - للإطلاع على بعض مصطلحات القصيدة القصيرة، ينظر: د. فيصل صالح القصيري: بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة. عمان. الأردن. دار مجدلاوي. ط: 1. السنة: 2006. ص: 95 وما بعدها .
- ³ - د. نزار بريك هنيدي: في مهب الشّعر. سوريا. دمشق. اتحاد الكتاب العرب. ط: 1. السنة: 2003. ص: 44.
- ⁴ - محمد عايش: أحمد مطر شاعر المنفى. لبنان. بيروت. دار اليوسف. ط: 1. السنة: 2006. ص: 91.
- ⁵ - أحمد مطر: الأعمال الكاملة. المجلد: 6. مصر. القاهرة. كنوز للنشر والتوزيع. ط: ؟. السنة: 2007. ص: 307.
- ⁶ - نزار قباني: الأعمال السياسيّة الكاملة. المجلد: 6. لبنان. بيروت. منشورات نزار قباني. ط: 2. السنة: 1999. ص: 147.
- ⁷ - نزار قباني: المصدر نفسه. ص: 155.
- ⁸ - نزار قباني: المصدر نفسه. ص: 157.
- ⁹ - عبد الرحمن إبراهيم المهوس: الشعر السعودي المعاصر دراسة في انزياح الإيقاع السعودية. الرياض. مؤسسة الإمامة الصحفية. ط: 1. السنة: 2003. ص: 220.
- ¹⁰ - المرجع نفسه. ص: 221.